رؤية في آلية الحفاظ على المخطوطات وصيانتها

مأمون الصاغرجي(*)

أحدثكم في هذه العجالة عن ملامح في آلية الحفاظ على المخطوطات وصيانتها:

لمحة تاريخية:

دأب العرب والمسلمون في سالف أيامهم على العناية بما تخطه أقلامهم على العُسب والرِّقاع، وقطع الأديم، وعظام الأكتاف، حفاظًا على ما جاء به الرسول ﷺ، من قرآن منزل. وبعد انقطاع الوحي بوفاته ﷺ، جُمع القرآن على عهد أبي بكر، ثم على عهد عثمان، رضي الله عنهما، من تلك الأدوات البدائية آنذاك، والتفت المسلمون إلى رواية أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وأحواله، التي كان عليها في السفر والحضر والغزوات، وما فسّره لهم من كتاب الله العزيز، الذي يتعبدون به ربهم، عن طريق الرواية الشفوية السائدة في مجتمع القرن الأول الهجري. ولما انتشر الإسلام في العهود اللاحقة شرقًا وغربًا، ودخل الناس في الإسلام أفواجًا، عُربُهم وعجمُهم، لجؤوا إلى تفسير آيات الكتاب، وتعلُّم اللسان العربي، فدُونتْ الروايات الشفوية ونُقلت من الأدوات البدائية، ثم إلى ورق البردي فيما بعد، وظهر علماء العربية، وأضحت الشعوب الأعجمية، تتعلم العربية، فنشأت رواية الشعر الذي اتُّخذ دليلًا على التفسيرات

(*) باحث في التراث العربي.

اللغوية للقرآن، ونشأ عن ذلك جمع الشعر الجاهلي، وجمع لغة الأعراب، في وصف السحاب والمطر والإبل والصيد وغير ذلك، ومن ثَمَّ أمست هذه المجموعات نواة المعجمات اللغوية. ومع تعاقب الأيام والسنين، صار العلماء يكتبون التواريخ للخلفاء والملوك، ثم تحولت هذه المحفوظات المدونة، إلى أوراق مكتوبة وكتبٍ مخطوطة، بعد أن توافر عددها وتكاثر تعدادها من جيل إلى جيل. وبخاصّة عندما بُدئ بنقل آداب اليونان والرومان وعلومهم وفلسفاتهم إلى اللغة العربية، في عصر الرشيد والمأمون، وهو ما يسمَّى بعصر الترجمة، إذْ أنشآ دار التعريب، التي سُمِّيت دار الحكمة فيما بعد، وكان عدد الخزائن فيها – على قول المقريزي – نحو أربعين خزانة، تتَّسع الواحدة منها لِثمانية عشر ألف كتاب، وبلغ عدد الكتب في مكتبة دار العلم في زمن الدولة الفاطمية نحو مئتي ألف مجلد.

وعلى أهمية هذه الثروة القومية الكبيرة، التي خلَّفها أجدادنا والتي تكوّن أكبر منتوج حضاري عرفته البشرية في ذلك الوقت، فإنَّ الحفاظ عليها اليوم والعناية بها وحمايتها من المخاطر الداخلية والخارجية ليمثِّل هدفاً مهمًّا في أولويات المجتمع العربي الحديث، وتاريخه العلمي والثقافي. إذْ يمتدُّ تاريخها في أطول حقب متتابعة منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) إلى تاريخ دخول الطباعة إلى عالمنا العربي أوائلَ القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، يعني نحو اثني عشر قرنًا، امتدّت في توارث المخطوط جيلًا بعد جيل، مع ازدياد أعداد المخطوطات، في كل طبقة من طبقات الناس.

الطرق التقليدية في حفظ المخطوط:

إن مؤسِّسي المكتبات الكبيرة الأوائل لم يَدُر في خَلَدهم ما يكتنف

الكتب التي جمعوها من مخاطر قد تعصف بها في وقت من الأوقات، ومع توافر أعداد الكتب فيها لم يجد القَيِّمون عليها في ذلك الوقت سوى أدوات الحفظ البدائية من تجليد وتزيين وحفظ على الرفوف.

خطر العوامل الداخلية البيولوجية:

والواقع أننا نجد المكتبات بعامة يكتنفها خطران كبيران، يعصفان بها: أولهما داخلي وهي عوامل عضوية، نظرًا لكون المخطوطات تتكون من أصل عضوي، فهي قابلة للتحلُّل والفساد وانتشار الحشرات بداخلها مع مرور الزمن، وعندما لا تتوفر لها الشروط الفنية الملائمة، والتي تجعل تلك الكائنات بإمكانها إحداث تشوهات في الورق والأغلفة واللواصق. وقد تكفل بالقضاءِ عليها في العصر الحديث تدابيرُ يقوم بها المتخصِّصون في معالجة المخطوطات وترميمها، فيتحكمون بعوامل الطبيعة، من درجة الحرارة، ونسبة الرطوبة، ومقادير الأشعة الضوئية، وغيرها مما قامت بها النظريات الحديثة للحفاظ عليها. وهذا لن أتعرض له في هذه العجالة، وأترك ذلك للفنيين المتخصصين.

خطر العوامل الخارجية:

وما أظن أن ثمة مكتبة تراثية اليوم تحتوي مثل هذه النفائس، ولا تتوفّر فيها الشروط الفنية، ولكني أنبِّه هنا على الأخطار التي تحيط بثرواتنا القومية، من كلِّ حدَب وصوب؛ من ذلك الاضطرابات السياسية التي تعصف بالدول، وما ينشأ عنها من تدمير لثروات البلاد، ونهب للمراكز الحضارية فيها، كما سجله التاريخ لنا على أيدي المغول والتتار، وتتمثل هذه الأخطار بالأمور التالية:

أولها الدمار الذي يلحق بالممتلكات والدوائر الرسمية في الحروب والفتن المتكررة، التي مرت على العالم الإسلامي، من مثل فاجعة بغداد أيام الغزو المغولي، وسقوط غرناطة، ثم السرقات المتتالية في أثناء الحروب الصليبية، وبعدها في عصر الاستعمار الحديث. إذْ قضوا على آثار العلماء وما بذلوا في حياتهم من جهود ضخمة في الجمع والتدوين، والدرس والبحث.

وإني لأذكرُ أيامَ حرب العاشر من رمضان عام ١٣٩٣هـ التي شنتها سورية ومصر على العدو الصهيوني، أو ما يسمَّى بحرب السادس من تشرين سنة ١٩٧٣م إذ كانت مخطوطات دار الكتب الظاهرية يومَها موجودةً في دار الكتب الظاهرية اليوم في باب البريد، التابعة لمجمع اللغة العربية بدمشق، وذلك قبل نقلها إلى مكتبة الأسد الوطنية، وقد كانت إدارة المجمع قد أخذت تدابير أولية منذ زمن بعيد، وذلك بتصوير المخطوطات التي يناهز عددها ثلاثة عشر ألفَ مخطوط على المكرو فِلْم، ووضعت الأفلام في خزائن خشبية في بناء المجمع (المدرسة العادلية)، ووضعت المخطوطات الأصلية بصناديق حديدية محكمة، ويقرب عددها من مئة صندوق، ورُحِّلت جميعها إلى المتحف الوطني، حيث المكان الآمن لها في ذلك الوقت. وكانت طلبات التصوير تُوفَّر آنذاك عن طريق المكروفِلْم في المجمع.

ثاني هذه المخاطر: الإهمال بسبب غياب الوعي بأهمية المخطوط وما يلحقه من الورثة الجاهلين بقيمته. وغالبًا ما يكون ذلك في البيوت والمنازل الخاصة، فلا يعتنون بالحفاظ عليه وترميمه إن اقتضى الأمر.

ثالث هذه المخاطر، وهو من أشدها تأثيرًا في العصر الحديث: هو إحاطة بعض المكتبات بحراسة شديدة كاذبة، تقف حائلًا في وجه العلماء والباحثين وطلبة العلم، بحيث يستحيل الوصول إليها، إلا بطرق ملتوية،

يسلكها بعضُ الموظفين المَكاتبيِّين الموكول إليهم حفظُها، طمعًا بالكسب غير المشروع، وطمسًا لمأثرة حضارية راقية، يفتخر بها العرب والمسلمون، ألا وهي الوقف الإسلامي الذي يسعى إلى ترسيخ أسس التعاون بين أفراد المجتمع، إذ الوقفُ يُحبَس للأجيال القادمة لتنتفع به، وهو المعبَّر عنه بالصدقة الجارية. فمعظم المخطوطات إنْ هي إلا وقفٌ حبَسها أصحابُها في المساجد والزوايا والرُّبُط على العلماء وطلاب العلم، كما يحبِسون المصاحف ليقرأها عامة الناس، وينتفعوا بما فيها. ثم نُقلت هذه المخطوطات إلى المكتبات الوطنية الكبيرة لحفظها وترميمها وصيانتها.

ويتذرّع بعض القائمين على خزائن المخطوطات بحجج واهية، كي لا تُتخذَ سلعةً للتجارة. فيتشددون في شروط الحصول على المخطوط، ليقفوا حائلًا بينه وبين مستحقيه، أفلا يعلمون أن عملهم هذا هو الذي يدفع الناس إلى التجارة وسلوك الطرق الجائرة، بعامل العرض والطلب، فلو يدري التاجر أن المخطوط مبذول لكل الناس من غير عناء، لأحجم، ولبارت تجارته بالخسران.

وللقضاء على هذه الظاهرة، والفساد الذي نشأ عنها، سعى كثير من القائمين على المؤسسات الخيرية إلى جعل المخطوط مبذولًا لطالبه من أهل العلم، عملًا بشروط الوقف. وقد ساعدهم على ذلك التقدُّم التقني الذي انتشر في أصقاع المعمورة، وغزا ميادين العلوم والصناعات والتجارات، وأضحى أداةً طيعة يستعملها أفراد المجتمع بشرائحه كافة. فإذا ما حفظت المخطوطات في أماكنها، الحائزة الشروطَ الفنية، وصُوِّرت بالصور الملونة الدقيقة، ثم وضعت على الشابكة، فأصبحت على طرَف الثمام، يتناولها الرائي يكبّرها أو يصغِّرها حسب حاجته.

وأضرب لكم أمثلة عن بعض تلك المواقع على الشابكة، التي هيأت

أُطُرها الفنية، وقامت بتصوير المخطوطات، ووضعتها على الشابكة لمن شاء أن يقتنيها من غير مقابل، وعملًا بالوقف الذي أشرت إليه، من هذه المواقع:

● هذا موقع مكتبة المحجة على الشابكة، السهم الأيمن يشير إلى قسم المخطوطات، والسهم الأيسر يشير إلى عنوان مجاميع المدرسة العمرية وهي مصورة عن مخطوطات الظاهرية.

● وهنا موقع المحجة نفسه ولكن هنا يجري اختيار قطعة من تاريخ ابن عساكر والسهم الأسفل يشير إلى التحميل لمن يريد أن يأخذ منه نسخة بالمجان.

● وهنا موقع مركز (وَدُود) للمخطوطات للبحث عن مخطوط وتحميله.

● وهنا موقع جامعة الملك سعود، والسهم يشير في الأعلى إلى البحث عن المخطوطة.

● وهنا موقع جامع المخطوطات الإسلامية يشير العمود الأيمن إلى رقم المخطوط، والأيسر إلى تصفح المخطوطة قبل تحميلها.

● وهنا الموقع السابق نفسه وفيه قسم من مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ويسعى الموقع لاستكمال جميع مقتنيات الظاهرية من المخطوطات.

● وهنا موقع (دونكم إرثكم) يشير إلى قائمة متجددة بمعنى أن المواقع المذكورة ما تزال تهيئ مخطوطات للعرض كل يوم، لتستكمل ما لديها من مخطوطات ووضعها في الموقع المشار إليه.

● وهذه أسماء مواقع المراكز العربية للمخطوطات وروابطها التي يدلُّ عليها الموقع السابق، وقد وصل عددها إلى اثنين وعشرين موقعًا.

● وهذه أسماء مواقع المراكز الأجنبية للمخطوطات وروابطها التي

يدلُّ عليها الموقع السابق، وقد وصل عددها إلى أربعة وخمسين موقعًا.

ربما تكون معظم هذه المراكز المذكورة لم تَستكمِل بعد وضع كل ما لديها من مخطوطات على مواقعها، ولكنها تسعى لإتمام هذا المشروع الضخم وهو إكمال ما تبقَّى لديها من مخطوطات لعرضها فيها.

وختامًا أقول: إنَّ رؤية المخطوط على الحاسوب فيما أظن، أجدى وأنفع من رؤيته البصرية الحقيقية، وخاصة إذا كان مصوَّرًا بتقنية عالية الجودة، وبالألوان الطبيعية، وذلك لما يتمتع به الحاسوب من قدرة على التحكم بأوضاع الصورة، من تكبير وتصغير وقلب ودوران، وغير ذلك، مما ييسِّرُ على المحقق ما يجد من صعوبة في قراءة الكلام الدقيق المرصوص بعضه إلى بعض.

أرجو أن أكون بهذه النظرة قد ساهمت في تقديم رؤية تحافظ على المخطوط من جهة، وتجعله ميسَّرًا لكل عالم، أو طالب علم، وإن انتشاره على الشابكة، هو من أهم الوسائل الناجعة في الحفاظ عليه. وكما قيل: العلم يزكو على الإنفاق.

والسلام عليكم.

* * *